جماليات النّقد من منظور المعياريّة عند عبد القاهر الجرجانيّ

The aesthetics of criticism from a normative perspective at Abdelkaher Al - Jordjani

د. لخضر قدور قطاوي
جامعة حسيبة بن بوعلي-الشّلف(الجزائر)
guettaoui1959@yahoo.com

تاريخ الإيداع: 2017/12/29 تاريخ القبول:2018/11/08 تاريخ النشر: 2018/12/01

ملخص:

يتناول هذا البحث الموسوم بجماليات النّقد من منظور المعياريّة عند عبد القاهر الجرجاني أهمّ ملامح المنهج النّقديّ المعياريّ الذي وظّفه الجرجانيّ كآلية للكشف عن الجمال الأدبيّ في النّص التّواصليّ، وقد وجّهنا جهدنا لتلمس تفاعله مع الشّاهد التّطبيقيّ البلاغيّ والنّحويّ، فكان أحيانا القرآن الكريم إذ نجده يقرّب معنى الإعجاز للقاصرين عن إدراكه.

وفي تعاملنا مع الشّواهد الشّعرية البلاغيّة والنّحوية وجدناه يوظّف فيها نحو المعنى للوصول إلى إدراك المعاني المقصودة من النّظم معتمدا على العرف، أي: ما كان مشتهرا ومعروفا عند العرب في التّواصل به.

وكان قصدنا تحيين دراسة هذه الشّواهد النّقديّة ليستفيد منها الباحثون والطّلبة ولتكون باعثا على إعادة قراءة التّراث اللّغوي العربيّ بمنهج معياريّ نابع من أصالتنا اللّغويّة حتّى نسهم في معالجة رهانات المستقبل للّغة العربيّة.

الكلمات المفتاحية: شاهد; تطبيق; بلاغة; نقد; جماليات

Summary :

The research entitled ''Aesthetic of Criticism from the normative perspective'' to Abd Kader Djardjani aims to show the most important characteristics of the critical approach that djarjani used as a method to discover the literary beauty in the communicative text. We have sent our best to determine the reaction with rhetorical, grammatical and practical evidence. That's why we find sometimes Coran approaches incompetence meanings for those who are unable to realize it.

When dealing with poetic, rhetorical and grammatical evidences, we have found that he uses the grammatical meaning to reach the intended meanings relying on tradition i.e. what was famous and known to communicate among the Arabs.

Our intention is to update the study of critical evidences for the benefits of researchers and students, and to become a cause to re-read the Arab linguistic heritage with a normative approach that comes from our linguistic originality to contribute in addressing the future challenges of the Arabic language.

Key Words : Rhetoric ; Practice; evidence; Criticism; Aesthetic.

البحث:

إشكاليّة البحث:

كثيرا ما يحسب على العلماء القدماء توغّلهم في استخدام المعياريّة التي يراها كثير من الباحثين أنّها جمّدت النّقد الأدبيّ، وقولبته في قوانين النّحو والبلاغة التي ورثها كابر عن كابر؛ ولكنهم لم يبصروا بهذه العين إلى الزّخم الوافد من الآخر الذي يتفق فيه نسق النّصّ العربيّ فيه مع ما عندهم في القليل، ويختلف عنه في الكثير، وكانت معظم هذه الدّراسات تصبّ في الجانب النّظريّ منه، الأمر الذي جعل الطّالب الجامعيّ في حيرة من أمره وهو لا يسْطِعُ أن يوظّف تلك النّظريّات في الجانب التّطبيقيّ، أي: لا يدخل بهذه المفاتيح

الطّلاسم إلى النّصّ الأدبيّ العربيّ ليتمكن من الوقوف على جمالياته. وهو إشكال قائم، ومشكلة تعليميّة تعاني منها الجامعة الجزائريّة خاصّة والعربيّة عامّة.

الإجابة عن إشكالية البحث:

وللإجابة عن هذا الإشكال رأيت أن آخذ النّزعة النّقدية عند عبد القاهر الجرجانيّ موضوع بحث من خلال تعامله مع الشّاهد النّحوي والبلاغيّ، وكيف استعان بالمعياريّة كتقنية تفرضها صناعة النّقد للوصول إلى الكشف عن جماليات الإبداع الأدبيّ في موازنته بين أرقى ما وصل إليه الإبداع الإنسانيّ، وما كان من الإعجاز القرآنيّ باعتماد صلة المعني بالنّحو.

ويكون واهما من يظنّ أن الجرجانيّ قد قصد بمصطلح النّحو ذلك النّحو الذي ورد مبتورا عن نصوصه وصار صناعة قاعدية تحشّى بمتونها أذهان المتعلّمة، بل النّحو عنده هو هذه التّراكيب التي تقع في النّفس قبل أن تكون قاعدة معياريّة النّحو فيه كاشفة عن جماليات الدّالة اللّغويّة، أي: الجملة مع مراعاة كل الأحوال المحيطة بهذا الإرسال التّواصليّ خارج النّفس. وتكون اللّغة المكتوبة إحدى أشكال الجمال الخارجيّ العاكس للجمال الدّاخليّ.

فالنّحو الذي يستخدمه الجرجانيّ كمعيار على جمالية الشّاهد البلاغيّ هو النّحو الدّلاليّ الذي يصل بنا إلى إدراك أفق النّص الجماليّ، ولا جمال بلا متعة، ومن ههنا جاء عنوان هذا البحث، لأنّ قصدنا بجماليات النّقد هو المتعة الأدبية التي يقدّمها عبد القاهر في ممسّاته لأشكال الإبداع. والملفت للانتباه أنّ أرسطوطاليس حين تكلّم عن الشّعر قال: «ويبدو أنّ الشّعر. على العموم . قد ولده سببان، وأنّ ذينك السّببين راجعان إلى الطّبيعة الإنسانيّة. فإنّ المحاكاة أمر فطريّ موجود للنّاس منذ الصّغر، والإنسان يفترق عن سائر الأحياء بأنّه أكثرها محاكاة، وأنّه يتعلّم أوّل ما يتعلّم بطريق المحاكاة، ثمّ إنّ الالتذاذ بالأشياء المحكيّة أمر عام للجميع».[1]" فقد جعل أرسطو التّعلّم الذي يكتسبه الإنسان بالمحاكاة لذّة. وكذلك فعل الجرجانيّ في مقدّمة كتابه دلائل الإعجاز فجعل العلم أحسن متعة بجعله أشرف منزلة، وما يكون التّعظيم للشيء إلا من جهة وجه الجمال الذي جعله يتميّز عن سائر نظرائه. ثمّ ينتهي به الحديث عن فضل علم البيان فيقول: «ثمّ إنّك لا ترى علما هو أرسخ أصلا، وأسبق فرعا، وأحلى جنى، وأعذب وردا، وأكرم نتاجا، وأنور سراجا من علم البيان».[2]"

إذن فطريق المعرفة منذ القديم هي معياريّة المحاكاة عند أرسطو ومعياريّة علميّة عند الجرجانيّ، والعلم هو القواعد التي تضبط المعرفة، وهذا في رأينا هو الأساس الذي قامت عليه نظريّة النّظم عنده، وانظر ردّه على من زهد في تعلّم النّحو الدّلاليّ المرتبط بالتّفكير العقليّ، وعلق في ذهنه أنّ النّحو هو أحكام الإعراب من رفع ونصب وغيرهما ممّا هو من مبادئه."[3]"

وإذ كان الجمال كما عرّفه الشّريف الجرجانيّ: « ما يتعلق بالرّضا واللّطف»."[4]" وكانت اللّطيفة الإشارة التي تكون دقيقة المعنى تلوح للفهم ولا تسعها العبارة وهي من علم الأذواق، لها ارتباط بالنّفس النّاطقة، أي: بالقلب"[5]"، ولعلّها ما يدرك بالبصيرة. والرّضا هو الآخر له هذا الاتّصال بهذه النّفس، والجمال كما مرّ متعلّق بهما. فمن أين يبدأ عبد القاهر الجرجانيّ مرسلة هذا الخطاب الذي يوجّهه إلى مشايخ يعلمون النّاس القرآن ويتحدّثون لهم عن بلاغته السّاحرة وعن أسلوبه المعجز وهم أبعد النّاس عن استخدام المعياريّة العلميّة التي بنيت على الوصفية التي أوّلها الشّاهد الشّعري الذي زهدوا فيه واعتبروه من لغو الحديث؟، ولذا كان من الخطأ الفادح سوق الدّليل على مسائل العلم للمتعلّم أو الجاحد قبل الإيمان بقيمة الدّليل. من ههنا عقد الجرجانيّ أول فصل في الدّلائل في الكلام على الشّعر. ثمّ النّحو الذي جعل فيه الجرجانيّ مدار النّظم على مراعاة دلالته ووظيفته في إطار الممارسة الخطابيّة (Pratique discursive) التي بطبيعتها اللّسانيّة والجغرافيّة ترتبط ارتباطا وثيقا بما جرت عليه لغة العرب كما تصوّرها أرقى جماليات الشّعر الإبداعيّة.

فعبد القاهر الجرجانيّ من منظور تحليل الخطاب الحديث لا يمكن عنده التّواصل مع شخص آخر، أو مع مجموعة في لغة ما بدون أن تكون ثَمّة قوانين الخطاب (Lois dus discours) التي تحكم نصّ التّواصل. ولا يخلو له حديث إلا عن إطار بلاغة الخطاب كما حدّده هو في ارتباطه بتوخّي معاني النّحو وهذا نجده واضحا عند صلاح فضل في حديثه عن هذا الإطار بأنّه «يدور في فلك علوم الاتّصال التي تخضع بدورها لمنطق استدلاليّ علمي»."[6]" ومعاني النّحو بالنّسبة لتحليل الخطاب حديثا هي جزء من منظومة كثيرة تسهم في تحليل الخطاب، وإذا كانت شروط تأويل الدّلالة والعلامة السّيميائيّة، والدّراسات اللّغويّة النّفسيّة والاجتماعيّة تسهم كلّها في بناء نظرية تحليل الخطاب في الزّمن الذي نعيش فإنّنا نحسب عبد القاهر الجرجانيّ لم يفته ولو بالإشارة إلى أهمّها وهو الجانب النّفسيّ في ثنائية بين ما يجول في النّفس، أي: من التّفكير وما يناسبه من تراكيب الكلام. ومما يؤكّد ما نزعمه قوله: «ثمّ اعلم أنّ ليست المزيّة بواجبة لها في أنفسها ومن حيث هي على الإطلاق ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام»."[7]"

وقد أجرى تطبيقا على جماليات الشّعر الذي لا تتذوّقه إلا بإكمال فكرته التي لها صلة بالمثير النّفسيّ الذي يوازي الأمر الخارجيّ للمتكلّم أو السّامع بحسب توجّه المرسلة الخطابيّة. من ذلك ما تمثّل به أبو بكر الصّديق . رضي الله عنه . من شعر زياد بن حنظلة التّميميّ حين وصله كتاب خالد . رضي الله عنه . بالفتح في هزيمة الأعاجم:

تَمَنَّانَا لِيَلْقَـــانَا بِـقَوْمٍ تَخَالُ بَيَـاضَ لَأْمِهِمُ السّرَابَا

فَقَدْ لاقَيْتَنَا فَرَأَيْتَ حَرْبًا عَوَانًا تَمْنَـعُ الشّيْخَ الشَّرَابَا

وهل هذا التمثّل بهذا الشّعر من قبل الصّديق . رضي الله عنه . إلا تعبير عما كان يجول بخاطره ممّا كان يتصوّره ملك العجم في ملاقاة جيشه لجيش خالد بن الوليد، وما كان يعرفه أبو بكر من جيش المسلمين

وقوّته، وأنّه قام بعملية تتعلق بعلم النّفس اللّغوي وهي الاستدعاء، فاستدعى من الكلام الشّعريّ أرقاه الذي يعبّر عن الحالة التي خطرت له بالبال، وهو التّمنيّ الذي أتبع باللقاء بدون مهلة فناسب هذا العطف بالفاء.

ونلمس هنا أن ظاهرة الاستدعاء النّصّيّ المماثل لما في الوجدان قد جاء في إطار سياق (Contexte) نصّ الرّسالة المبشر بالفتح؛ لأنّ المفهوم المصطلحيّ للسّياق عند مدرسة لندن يسعفنا هنا ولو لم نتناول الكلمة بمفهومها الإفراديّ، إذ نجد توفر السّياق الدّاخلي والسّياق الخارجيّ، والسّياق الثّقافيّ، ألا ترى أنّ خواطر أبي بكر الدّاخليّة وهو ينتظر أيّ خبر عن مصير المعركة هو سياق داخليّ ساعد على عمليّة الاستدعاء، وأنّ الرسالة المبشرة كانت سياقا خارجيّا مثل العنصر الثّانيّ في هذا الاستدعاء وأمّا النّصّ الشّعريّ فهو سياق ثقافيّ كانت العرب تؤدّب أبناءها على حفظ أشعار العرب. وما وقع لأبي بكر هنا له أمثلة كثيرة في التّمثّل بالمورث الثّقافيّ الشّعريّ في سياق الخطاب. فهذا معاوية لما عاده في مرضه أحد من يراهم خصوما له من العلويين تمثّل ببيت أبي ذؤيب الهذلي"[8]":

وَتَجَلُّدِي للشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ

وهذا من قبيل الاستشهاد أو الاقتباس عند علماء البلاغة، والمعنى الدّلاليّ الذي نحصل عليه يربط بين علاقة المعنى المقاليّ والمعنى المقاميّ الذي جعلناه نحن توسّعا من باب السّياق. يقول تمّام حسّان: «وقد يستعار (المقال) المشهور للمقام الطارئ ... أثناء الحديث، والأصل في ذلك أننا نستطيع أن نوفق بين كلام ذائع الشهرة انقضى مقامه الأصلي الذي قيل فيه وبين مقام مشابه وجدنا أنفسنا فيه الآن».[9]"

توظيف الجرجاني لمعيارية التّركيب النّحوي في الذّوق الجماليّ ومنها:

جمالية التّعبير بالنّكرة فيما يتطلّبه سياق النّصّ الأدبيّ

للكشف عن جماليات الشّاهد البلاغيّ في نصّ الخطاب يعمد عبد القاهر الجرجانيّ إلى استخدام المفاهيم النّحوية فيتّخذ منها آليات تفكيكيّة للنّصّ قصد الكشف عن المنعطف الجماليّ في النّصّ الأدبيّ . وقد عبّرنا بمفاهيم النّحو ولم نقل قواعد النّحو؛ وذلك لأنّ الجرجانيّ يدعو المتلقّي للدّالة التّواصليّة إلى مراجعة النّفس، وإذكاء الإحساس وهي ثنائيّة بعيدة كلّ البعد عن قواعد النّحو الصناعية. يقول في الشّاهد القرآني الذي ساقه على أنّه من إعجاز القرآن في استخدام النّكرة بدلا من المعرفة في قوله تعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ : «إذا أنت راجعت نفسك، وأذكيت حسك وجدت لهذا التّنكير وأن قيل (عَلَى حَيَاةٍ) ولم يقل: على الحياة: حُسنا وروعة ولطف موقع لا يقادر قدره، وتَجِدُكَ تعدم ذلك مع التّعريف، وتخرج عن الأريحيّة والأُنس إلى خلافهما. والسّبب في ذلك أن المعنى على الازدياد من الحياة لا الحياة من أصلها».[10]"

فقد دلّت النّكرة هنا على الازدياد من الحياة في المستقبل حتى لو عمروا دهورا طويلة، بينما التّعبير بالحياة فهي الحياة المعهودة، وربما دلّت النّكرة هنا على الازدياد من الحياة مهما كانت هذه الحياة خسيسة. (على حياة)، أيْ: أيَّ حياة وكيفما كانت.

ولا يتوقّف الجرجانيّ في الكشف عن جماليات التّعبير بالنّكرة في الإعجاز القرآنيّ عن سوق أمثلة تطبيقيّة أخرى بغرض تمكين إدراك هذا الحسّ الجماليّ لدى المتلقّي فيقول مضيفا: «وشبيه بتنكير الحياة في هذه الآية تنكيرها في قوله عزّ وجلّ ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾"" وذلك أنّ السّبب في حسن التّنكير، وأنْ لم يحسن التّعريف أن ليس المعنى على الحياة نفسها؛ ولكنْ على أنّه لما كان الإنسان إذا علم أنّه إذا قَتَلَ قُتِلَ ارتدع بذلك عن القتل فسلم صاحبه صارت حياة هذا المهموم بقتله في مستأنف الوقت مستفادة بالقصاص، وصار كأنّه قد حيي في باقي عمره به، أي: بالقصاص»."[11]"

والجرجانيّ لا يكتف بتقديم الشّاهد البلاغيّ ويشرحه بل يقدّم رأيه النّقدي في صنف المتذوّق لجمال الشّاهد لذا نجده ينهي حديثه عن إدراك هذا الذّوق المتعلّق باستخدام النّكرة في الشّواهد السّابقة بقوله: «واعلم أنّه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السّامع ولا يجد لديه قبولا حتى يكون من أهل الذّوق والمعرفة، وحتىّ يكون ممن تحدّثه نفسه بأن لما يومئ إليه من الحسن واللّطف أصلا، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمّل الكلام فيجد الأريحيّة تارة ويعرى منها أخرى، وحتىّ إذا عجبته عجب، وإذا نبّهته لموضع المزيّة انتبه، فأمّا من كانت الحالان والوجهان عنده أبدا على سواء وكان لا يتفقّد من أمر النّظم إلا الصّحة المطلقة وإلا إعرابا ظاهرا فما أقلّ ما يجدي الكلام معه»."[12]"

وينضاف إلى ما أتينا عليه أنّ هناك نصّا تواصليّا يراعي السّياق لوضع كلمة(حياة) ـ وهي نكرة ـ أدت بالتّركيب إلى أن يكون من الإعجاز، ولو جاءت في غير هذا السّياق القرآنيّ، لكانت على غير هذا الجمال، أو كانت دون نصّ لكانت لغوا. وهذا ما ذهب إليه فيرث في شروطه التي شرطها لفهم معنى النّصّ اللّغويّ حين اشترط سياق الحال"[13]"، وهو ما يسمّى عند علماء البلاغة العرب بالمقام."[14]"

الذّوق الفنيّ المتعلق بالفصل :

أورد الجرجانيّ قول الشاعر:

قالَ لِي: كَيْفَ أَنْتَ؟ قُلْتُ: عَلِيلٌ سَهَرٌ دَائمٌ، وَحُـزْنٌ طَـوِيلُ

ثمّ أبدى وجهة نقديّة فحكم على البيت بأنّه من النّادر، ووضّح بعد ذلك سبب هذا الحكم فقال: «لما كان في العادة إذا قيل للرّجل: كيف أنت؟ فقال: (عليل) أن يسأل ثانيا فيقال: ما علّتك؟ قدّر كأنّه قد قيل له ذلك فأتى بقوله: سهرٌ دائمٌ: جوابا عن هذا السّؤال المفهوم من فحوى الحال فاعرفه»."[15]"

وههنا نلمس تحليلا دقيقا لفحوى خطاب النّص الشّعريّ، فهناك ولوج النّاقد إلى الحيّز العرفيّ والحيّز النّفسيّ الذي ترتب عليه الاقتصاد الكلاميّ لدى الشّاعر الذي دار في نفسه السّؤال عن سبب العلّة فأغنى السّائل عن تكرار السّؤال سواء أكان قاصدا حقيقة أو غير قاصد؛ وذلك لأنّ هذا الحسّ المرهف عند هذا

الشاعر ذهب به إلى هذه الصّياغة التي اعتمدت على فنّ وصل الكلام فينسجم المعنى مع الاقتصاد الكلاميّ وحالة المعلول التي غالبا ما تفضل الصّمت.

وهذا في صميم النّقد الأدبيّ، لأنّ الجرجانيّ قد أجاب بطريقة ما عن سؤال كيف صُنع هذا البيت النّادر؟ ولمّا ذهب إلى الإجابة فإنّه ذهب إلى لبنات النّصّ اللّغويّة التي استخدمها الشّاعر وهذا لا يخالفه فيه أصحاب النّظريّة البنائيّة لأنّ الجرجانيّ ليس بحثه في الغرض من قول الشّعر وإنّما بحثه ينصب على ما جعل البيت جميلا هنا وهو البحث في الكيفيّة.

وهنا يمكن وجود مجالات التّقاطع بين النّقد القديم المعتمد على المعياريّة العلميّة وبين المدارس النّقدية الحديثة التي تأسّست على ما وصل إليه علم اللّسانيات في جميع مستوياته اللّغويّة من منظور المنهج الوصفيّ الذي في النهاية لا مناص له من المعياريّة التي يؤسس هو لها نفسه. وكلام الجرجانيّ لم يكن إنتاجا أدبيّا بل كان إنتاجا نقديّا قيل حول شواهد كثيرة وظفّها لإثبات نظريّة النّظم. ولم يكن جهده العلميّ إلاّ في صميم ما يطمح له النّقد الأدبيّ، كما فعل مع ما ساقه شاهدا على ظاهرة الوصل وهو قول المتنبي:

وَما عَفَتِ الرِيَّاحُ لَهُ مَحَلاً عَفَاهُ مَنْ حَدَا بِهِمْ وَسَاقَا

فعلّق على البيت بقوله: «لما نفى أن يكون الذي يرى به من الدّروس والعفاء من الرّياح وأن تكون التي فعلت ذلك وكان في العادة إذا نفي الفعل الموجود الحاصل عن واحد فقيل: لم يفعله فلان أن يقال: فمن فعله؟ قدّر كأنّ قائلا قال: قد زعمت أنّ الريّاح لم تعف له محلا فما عفاه إذن؟ فقال مجيبا: عفاه من حدا بهم وساقا»."[16]" وقد اعتبر هذا الإبداع من المتنبيّ من الحسن البيّن.

فالمعياريّة التي يوظّفها الجرجانيّ معياريّة مبنيّة على استقراء عادة العرب في تلقي نصّ الخطاب كما أشار إليها في ذكره عن المعروف لديهم في السّؤال عن الفاعل الثّاني إذا كان الفعل منفيا عن الفاعل الواحد. وهو هنا حذف الجملة التي جعلته يستخدم طريق الوصل.

وهذا الذّوق الجماليّ الذي وجدناه عند الجرجانيّ في كلامه عن الفصل في هذا الشّاهد البلاغيّ، لا نجده عند ابن جنّي شارح هذا البيت، الذي قال: «أي: إنّما عفاه من حدا بهم، وإلاّ فقد كانت الريّاح تجري عليه، وهم فيه، فلا تعفّيه، وإنّما عفا ودرس لمّا زالوا عنه، ونسب الفعل إلى الحادي والسّائق؛ لأنّهما اللذان أزعجا الإبل»."[17]" وهذه المعاني هي نفسها تقريبا عند أبي العلاء المعريّ في قوله: «فليس للريّاح فيه صنع، وإنّما ذلك من صنيع من حدى إبلهم وساقها»."[18]" وكذلك الشأن مع الواحدي أحد شراح ديوان المتنبيّ"[19]"، ومع العكبري"[20]" والبرقوقي"[21]"

وممّا يزيد الأمر وضوحا ـ لما كان يعتمده الجرجانيّ في نقد الشّعر وتخريج دلالاته ـ أنّ الشّعراء قد يخرجون من حال إلى حال دون علم بقواعد النّحو وصناعته، ولكن بالاستعانة بسياق الحال، أو الموقف كما نجده عند الشّاعر عتبان بن وصيلة أو أصيلة الشّيباني القائل"[22]":

فَإِنْ يَكُ مِنْكُمْ كَانَ مَرْوَانُ وَابْنُهُ وعَمْرٌو وَمِنْكُمْ هَاشِمٌ وَحَبِيبُ

فَمِنَّا حُصَيْنٌ وَالْبُطَـيْنُ وَقُعْنُبٌ وَمِـنَّا أَمِـيرُ المؤْمِـنِينَ شَبِيبُ

فيذكر لنا ضيّاء الدّين بن الأثير حادثة وقعت له حول معنى الشّطر الأخير من البيت الثّاني فيقول: «ثمّ ظفر به هشام بن عبد الملك فقال له: أنت القائل: ومنا أميرُ المؤمنين شبيب؟ فقال: إنّما قلت: ومناّ أميرَ المؤمنين، فتخلّص بعدوله عن الخبر إلى النّداء. وهذه المواربة لطيفة جدّا»."[23]" فلم يذكر ضياء الدّين الحكم الإعرابيّ كما تذهب إليه الصّناعة النّحويّة وهو الرّفع على الخبريّة، والنّصب على النّداء، بل اعتمد المعنى الإعرابيّ الفطريّ (الخبر)، و(الإنشاء) وهو من عرف التّواصل بين العرب في ذلك الحيّز الزّمانيّ الذي لم يصله بعد توغّل الدّرس النّحويّ في الأصول والفروع.

وهذه المواربة الذّكيّة هي تحريف للمعنى الذي استله الخليفة هشام بن عبد الملك من البيت بناء على وجه الخبر، والذي يترتب عليه حكم إقرار الشّاعر بإمارة شبيب الخارجيّ، وإبطال إمارة هشام بن عبد الملك الأمويّ الأمير الشّرعيّ، فلّما صرف الكلام إلى النّداء انتقض في ذهن الخليفة صورة إثبات حكم الإمارة لشبيب الخارجيّ، وأضحت مثبتة له من قبل الشّاعر باستخدامه لأسلوب النّداء.

الشّاهد النّحويّ عند عبد القاهر الجرجانيّ:

وإذا تركنا الشّاهد البلاغيّ وذهبنا إلى الشّاهد النّحويّ لنرى كيف يتعامل معه فإنّنا لانعدم هذه الرّوح النّقديّة التي تجعل من المعياريّة العلميّة الباعثة على تذوّق جمال التّواصل العربيّ وتجنيبه اللّبس وممّا قاله في الشّاهد النّحويّ"[24]":

لَلبْسُ عَبَـاءَةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ

«تقدير: لَلبْسُ عباءة، وأن تقرّ عيني أحبّ؛ لأنّ الغرض أن يجمع بين لبس العباءة وقرّة العين، فيقال: إنّهما جميعا أحبّ من لبس الشُّفوف، وليس المقصود أنّ لبس العباءة أحبّ من لبس الشّفوف مقربا من قرّة العين. فلو رفعت لكان التّقدير: للبس عباءة أحبّ إليّ من لبس الشّفوف، ثمّ تقول: وتقرّ عيني، وليس هذا دليل على أنّ المحبّة تحصل من لبس العباءة مقترنا بقرّة العين، وينبغي أن يعلم أنّ الواو هنا ليس للعطف فقط كقولك: زيد وعمرو خير من بكر، تريد أنّ كلّ واحد منهما خير من بكر؛ وإنّما الواو متضمّن لمعنى (مع) فكأنّه قال: للبس عباءة مع قرّة العين أحبّ إليّ».""[25]"

وكان مما يقرّ عينها وينزل الراحة بصدرها هو أكبر مما في ألفاظ النّصّ فما النّصّ إلا علامة سيمائيّة لما هو وراءها والمراد هو ولو أن ألبس عباءة وأجتمع بأناسي والعودة إلى مسقط رأسي بالبادية. وهو ما أقرّه الجرجانيّ بإيجاز عبارته السّابقة، والعودة إلى النّصّ كاملا يكشف لنا هذا الحنين من ميسون إلى بادية قبيلتها كما أورده الحريريّ."[26]"

فحين يلجأ الجرجانيّ إلى التّقدير فهو إحدى طرق التّأويل المبني أساسا على مراعاة المعنى السّليم للنّصّ الأدبيّ، والشّاهد النّحويّ هنا عنده ليس شاهدا من أجل البحث في حكم النّصب بـ (أن) المضمرة في الفعل (تقرَّ) بقدر ما هو إظهار المعنى الجماليّ باستخدام آلية المنهج المعياريّ العلميّ الذي يرتكز فيه على نظرية نحو المعنى. وما الذي يفهم من قرّة العين برؤية الكوكب سهيل في بيت مالك بن الرّيب؟

ربّما احتاج النّاقد إلى استخدام علم الفلك للوصول إلى فهم النّص الأدبيّ وتقويم التّخاريج الدّلالية المعوجة التي أوّل بها كما هو الحال مع بيت مالك بن الرّيب التّميميّ الذي يقول"[27]":

أَقُولُ لِأَصْحَابِي: ارْفَعُونِي فَإِنَّنِي يَقرُّ بِعَيِنِي أَنْ سُهَيْلٌ بَدَا لِيَا

فالذي رآه المرزوقيّ . حسبما يعتقده بعض الأعراب . هو أنّ النّظر إلى سُهيل يشفي من مرض البرسام، ولذلك يقول مالك لأصحابه ارفعوني، كما أنّ سُهيل هو أشفق الكواكب على الغرباء وأبناء السّبيل، هذه بعض الاعتقادات الملتصقة بهذا الكوكب عند بعض الأعراب، وقد سئل الدّكتور أحمد خان عن معنى هذا البيت فرجع إلى علم الجغرافيا وعلماء الفلك لتحديد المكان الذي قال فيه مالك بن الريب هذا البيت لكون المرزوقيّ ذكر أنّ بين رؤية سهيل بالحجاز وبين رؤيته بالعراق عشرين يوما، كما ذكر من قالوا: بأنّ سهيلا لا يرى بأرض خرسان . وهي البلد التي بها مات مالك بن الريب . ومنهم ابن منظور، والزّبيدي، والقاليّ، وكان ممّا قاله أحمد خان في هذا التّخريج : «ليس بشيء على ما سألناه في قسم الفلك بجامعة بنجاب (بلاهور . باكستان) بهذا الشّأن، وخاصّة في رؤية كوكب سهيل في مكانة (الطَّبَسَيْن) بخرسان فإنّه أجاب: أن بعد الزّاوي declination لسهيل Canopus من استواء سماوي 5 درجة 40 دقيقة أو تحتها، وإن نظرنا إلى انحراف النّور الجويّ Atmospheric refraction الذي يرى من 35 دقيقة فرؤية سهيل ستكون ممكنة من الدّرجة 38، كذلك وبأن نحسب التّمايل الأفقيّ لأمكنة عالية فيمكن لنا رؤيته حتى الدّرجة 39، وتحصيل الحاصل أنّ رؤية سهيل ممكنة من جميع الأمكنة في العالم التي تقع حتى الدرجة 39 من خط الاستواء، وأفضل الأوقات لرؤيته شهر يناير في الشّتاء ».""[28]"

والذي نخلص إليه من نقل هذا التّخريج العلميّ المعتمد على التّخصّص في علم الفلك هو أن لا يتورّط النّاقد في إبعاد الرؤية الإبداعيّة لصاحب النّصّ، فلعلّ مالك بن الريب كان في منخفض من الأرض فدعاهم إلى رفعه إلى مكان عال يسمح له بوضوح رؤية هذا الكوكب الذي كان يتفاءل برؤيته وتقرّ عينه به، وهذا أمر مألوف عند من يشتدّ بهم المرض فإنه تسرّهم رؤية أماكن أيام الصّبا بما في ذلك الكواكب. وهذا ما أيُّد بعلم

الفلك هنا بأنّ مالك ابن الريب كان مصيبا في طلبه ولم يكن محالا كما ذهبت إليه التّخريجات السّابقة التي اعتبرها الباحث أحمد خان أنها ليست بشيء أمام ما أيدّه علم الفلك.

خاتمة :

خرجت من هذا البحث بجملة من النتائج أجملها فيما يأتي:

1. اعتمد عبد القاهر الجرجانيّ المنهج النّقديّ المعياريّ ووظّفه كآلية للكشف عن الجمال الأدبيّ في النّص التّواصليّ الذي مثلته كثير من شواهد القرآن والشعر.
2. المعياريّة التي يوظّفها الجرجانيّ معياريّة مبنيّة على استقراء عادة العرب في تلقي نصّ الخطاب كما أشار إليها في ذكره عن المعروف لديهم.
3. الشّعراء عنه قد يخرجون من حال إلى حال دون علم بقواعد النّحو وصناعته، ولكن بالاستعانة بسياق الحال، أو الموقف.
4. لمسنا تحليلا دقيقا لفحوى خطاب النّص الشّعريّ، فعبد القاهر الجرجاني يلج إلى الحيّز العرفيّ والحيّز النّفسيّ الذي ترتب عليه الاقتصاد الكلاميّ لدى الشّاعر.
5. يراعي عبد القاهر الجرجاني السّياق لوضع الكلمة كما هو الحال مع كلمة (حياة) ـ وهي نكرة ـ أدت بالتّركيب إلى أن يكون من الإعجاز، ولو جاءت في غير هذا السّياق القرآنيّ لما كانت لها تلك المتعة الجماليّة .
6. توصلنا إلى أنّ النقد يحتاج إلى كثير من العلوم الأخرى كما كان الموقف مع استخدام علم الفلك للوصول إلى التمتع ببيت مالك بن الريب.
7. تبقى هذه الدراسة أرضية بحث لمن يروم المزيد في الكشف عن رهانات المنهج النقدي عند عبد القاهر الجرجاني وغيره من علماء العربية.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث:

القرآن الكريم

1- ابن الشجري، الأمالي الشجرية، دار المعرفة، بيروت . لبنان، وبدون.

2- ابن جني ، الفسر شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي، تحقيق د. رضا رجب، دار الينابيع، دمشق . سورية، ط1 ، سنة2004م.

3- أبو ذؤيب الهذلي، الديوان، تح، د. أنطونيوس بطرس، دار صادر، بيروت . لبنان، ط1، 1424هـ . 2003م.

4- أرسوطاليس، في الشعر نقل أبي بشر متى بن يونس القنائي من السريالي إلى العربي، تحقيق د.شكري محمد عياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1/1993م.

5- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة . مصر، ط3، 1418هـ . 1998م .

6- الحريري، درّة الغواص في أوهام الخواص، تحقيق عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت . لبنان، ط1 سنة 1418هـ . 1998م.

-7 شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط2، سنة 1428هـ . 2007م.
-8 صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النّص، ، دار الكتاب المصري . القاهرة ودار الكتاب اللبناني . بيروت، ط1، 1425هـ . 2004م.
-9 ضياء الدين بن الأثير الجزري، كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب، تحقيق ودراسة، د. النبوي عبد الواحد شعلان، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة . مصر، ط1 ، سنة 1415هـ . 1994م.
-10 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني تأليف تحقيق السيد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت . لبنان، ط11401هـ . 1981م.
-11 عبد القاهر الجرجاني، كتاب المقتصد في شرح الإيضاح ، تحقيق د . كاظم بحر المرجان، دار الرشيد، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، ط1/ 1982م.
-12 العكبري(ت 610هـ) التبيان في شرح الديوان (شرح ديوان أبي الطيب المتنبي) تحقيق د. كمال طالب، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط1418/1هـ . 1997م.
-13 علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت 468هـ)، شرح ديوان المتنبي، ، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت . لبنان عن طبعة برلين 1861م.
-14 كتاب التعريفات للشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، 1416هـ – 1995م.
-15 مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلة محكمة فصلية، الجزء الثاني، المجلد الخامس والثمانون (85)، ربيع الآخر 1431هـ . نيسان 2010م .
-16 معجز أحمد، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي العلاء المعري (ت 449هـ)، تحقيق ودراسة د. عبد المجيد دياب، دار المعارف، القاهرة . مصر، ط2 ، سنة1413هـ . 1992م.
-17 منال " محمد هشام" سعيد النجار، نظرية المقام عند العرب في ضوء البراغماتية، عالم الكتب الحديث، إربد . الأردن، ط1، 1432هـ . 2011م.

هوامش البحث:

[1] . في الشعر، ص36.
[2] . دلائل الإعجاز، ص4.
[3] . انظر: المصدر السابق، ص6.
[4] . التعريفات، ص78.
[5] . انظر: التعريفات، ص192.
[6] . بلاغة الخطاب وعلم النصّ، ص16.
[7] . دلائل الإعجاز، ص69.
[8] . ديوانه، ص145.
[9] . اللغة العربية معناها ومبناها، ص339.
[10] . دلائل الإعجاز، ص223.
[11] . دلائل الإعجاز، ص 224.
[12] . دلائل الإعجاز ،ص 225.

[13] . وله شروط أخرى منها: . أن يحال النصّ اللغوي على المستويات اللغوية المختلفة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية . وجوب تحديد بيئة الكلام المدروس . أن يتبين نوع الوظيفة الكلامية. ينظر ينظر نظرية المقام عند العرب في ضوء البراغماتية لمنال محمد هشام سعيد النجار ص 11 و12 .

[14] . ينظر: نظرية المقام عند العرب في ضوء البراغماتية، لمنال محمد هشام سعيد النجار، ص 11.

[15] . دلائل الإعجاز ،ص 184.

[16] . دلائل الإعجاز، ص184.

[17] . الفسر، ج2 ،ص461.

[18] . معجز أحمد، ج3، ص115.

[19] . قال الواحدي: " يقول: لم تعف الريّاح لهذا الربع منزلا فلا ذنب للريح في دروس منازله، إنّما عفاه الحادي بسكانه، والسائق؛ لأنهم لو لم يخرجوا منه لمّا درس الربع شرح ديوان المتنبي للواحدي ج2 ص424 .

[20] . ما عند العكبري شبيه بما للواحدي انظر التبيان في شرح الديوان، ج2، ص300.

[21] . ما عند الواحدي هو نفسه عند البرقوقي بتصرف، انظر: شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، ج3، ص29.

[22] . انظر البيتين في كفاية الطالب، ضياء الدين ابن الأثير ،ص45.

[23] . كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب، ص 44و45.

[24] . البيت لميسون بنت بحدل الكلبية زوج معاوية بن أبي سفيان، انظر:درّة الغواص، ص49، والأمالي الشجرية ،ج1، ص 280 .

[25] . المقتصد في شرح الإيضاح، ج2 ،ص1059.

[26] . درّة الغواص في أوهام الخواص، ص49.

[27] . انظر: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج2 ،المجلد 85، ص،541 ربيع الآخر 1431هـ . نيسان 2010م.

[28] . من مقال (رسالة في شرح بيت مالك بن الريب التميمي)، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج2 المجلد 85، ربيع الآخر 1431هـ . نيسان 2010م. ص543 و544 .